الفصل الأول

عصر جمال الدين الأفغاني

١ ــ الحياة السياسية

ا ــ حالة الشرق عامة

كان الشرق ــ وهو مهبط الأديان ــ كما يجب أن يكون: مشرق النور ، ومبعث الهداية ، وكان يرسل نوره إلى كل أرض ، وينشر هدايته على كل قبيل . وظل على ذلك قروناً حتى حاق به ما حاق من العلل والنوائب ، وأصاب أهله ما أصابهم من المحن والشدائد ، فانطفأ نوره ، وغربت شمس هدايته ، وسيطر عليه الأوربيون فجعلوه بينهم نهباً مقسّماً يستغلّونه بعلمهم ، ويستأكلونه بقوّتهم .

ويحدثنا التاريخ أن الحضارة العربية قد انحطت واختفت معها الروح العربية الأولى منذ أوائل القرن الحادى عشر ، وذلك يوم أن استولى الترك على ملك العرب واكتسحوا بجيوشهم آسية الصغرى .

ولقد استسلم الشرق الإسلامى لحكم الترك الثقيل الظالم ، ولم يقف هذا الشر المستطير الذى ابتلى به عند ذلك ، ولكن تفاقم البلاء عليه فى أواخر القرن الثانى عشر ــ يوم أن ظهرت عروق الطورانية ، وكونت وحدة ظلت زمناً طويلاً . وعلى رأسها الطاغية الجبار « جنكيزخان » فعاث فى الأرض فساداً ورأى العالم من بلائه ونكباته ما لم ير مثله من قبل .

ثم سار خلفاؤه من بعده على طريقته ، واجتاحت العاصفة المغولية الشمال الشرقى من آسيا ، وامتدّت هذه العاصفة الهوجاء فشملت العالم جميعاً من الهند إلى مصر .

وبتخريب بغداد على أيدى المغول سنة ١٢٥٨ م أفل نجم الحضارة العربية

كأن لم تغن بالأمس وكانت هذه الحضارة قد أصيبت بضربة قاصمة أخرى فى الغرب وهى نازلة الأندلس العربية .

ولما كان الأتراك قد حرموا نعمة التهذيب والتثقيف ، ولم يحسنوا فى الحياة شيئاً إلا فنون الحرب فإنهم كانوا يحكمون رعاياهم حكماً بربرياً ظالماً .

وبينما كان الشرق الإسلامى يئن تحت وطأة المظالم التركية ، والأهوال المغولية ، كانت أوربة قد أخذت تستيقظ من رقادها ، وتسير فى طريق التقدم والعمران ، وما لبثت — بعد أن تهيأت لها وسائل استكشاف أمريكا — وانفتح أمامها طريق الهند ، أن استهانت بجبابرة آسيا وطغاتها ، وكان مما زاد فى قوتها انهيال موارد الثروة من وراء البحار عليها . وظل الشرق فى أثناء ذلك جامداً تائهاً فى ديجور الظلام ، وتأخر فى كل نواحى الحياة إلى أن أصبح أهله فى ساقة الأمم ، وكانوا قد فقدوا حتى قوتهم ، وباتوا لا قبل لهم بملاقاة الغرب فى أى ميدان من ميادين الحياة .

وكذلك كان أمر الترك فإن قوتهم قد وهنت وصاروا لا يستطيعون مجاراة الغرب فى سباق الاختراع والارتقاء — وكان عاقبة ذلك كله أن كرّت أوربة على المملكة العثمانية تقصقص من أطرافها .

وظل الشرق على ذلك قروناً حتى أقبل القرن الثامن عشر وفى خلاله كانت الدول الأوربية قد تسلطت على العالم الإسلامى ، وأخضعت أقطار شرق أوربة وجزائر الهند .

وطال نوم الشرق حتى انتهى هذا القرن ثم أخذ يفتح عينيه فإذا به يجد أوربة إزاءه «مجنونة بثورتها الصناعية ، مدججة بأسلحة العلم الحديث وعجائب الاختراع» وكان من اختراعها ، تلك الآلات الحربية الجهنمية المدهشة . ثم التفت فرأى أوربة قد استعمرت ممالكه وسقطت فى يدها أقطاره ، الواحد بعد الآخر ! فبريطانيا قد استولت على الهند ومصر ! وروسية عبرت القوقاس وبسطت سلطانها على أواسط آسيا ؛ أما فرنسا فكانت قد فتحت شمال إفريقية .

ولم تنحصر شهوة الاستعمار الأوربى فى الدول الكبرى فحسب ، وإنما

تسابقت الدول الصغرى — هى الأخرى — لتنال نصيبها من الغنيمة الإسلامية ، فاستولت على الأقطار الصغيرة من بلاد الإسلام .

ولم يكن ذلك كله ليتهيأ للغرب إلا لأن العالم الإسلامى كان قد بلغ من الضعف مبلغاً أفقده الحس والحركة .

ولم يكتف الغرب باستعمار الشرق وتسخيره وابتزاز كل خيراته ، بل أخذ يعامله معاملة قاسية لا رحمة فيها ولا عدل ، وغالى فى إيذائه وإهانته كأن أهله لم يكونوا من بنى البشر .

وإنّا — لكى نستوفى الكلام عن حال الشرق فى القرن الثامن عشر — نأتى بكلمة صادقة فى وصف العالم الإسلامى فى هذا القرن ، كتبها كاتب أمريكى كبير ذلكم هو « لوثروب ستودارد » فى كتابه حاضر العالم الإسلامى فى الفصل الذى عقده تحت عنوان « اليقظة الإسلامية فى القرن التاسع عشر[1] » .

قال لوثروب :

« كان العالم الإسلامى فى القرن الثامن عشر قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ ، ومن التدنّى والانحطاط أعمق دركة ، فاربدّ جوّه ، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه . . وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربى ، واستغرقت الأمم الإسلامية فى اتباع الأهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة فى الناس ، وساد الجهل ، وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال ، فليس يُرى فى العالم الإسلامى — فى ذلك العهد — سوى المستبدّين الغاشمين ، كسلطان تركيا ، وأواخر ملوك المغول فى الهند ، يحكمون حكماً واهناً . .

وقام كثير من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التى هم فى حكمها وينشئون حكومات مستقلة ، ولكن مستبدة كحكومة الدولة التى خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع من فى حكمهم من الزعماء هنا وهناك فكثر

---

(١) نقل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض وفيه فصول وتعليقات وحواش للأمير شكيب أرسلان . راجع ص ٢٥٩ ج ١ وما بعدها .

السلب والنهب ، وفقد الأمن ، وصارت السماء تمطر ظلما وجوراً .

وجاء فوق جميع ذلك — رجال الدين المستبدّون — يزيدون الرعايا إرهاقاً فوق إرهاق ، فقلت الأيدى وقعدت عن طلب الرزق وكاد العزم يتلاشى فى نفوس المسلمين وبارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة أيما إهمال .

وأما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألبست الوحدانية — التى علّمها صاحبُ الرسالة الناسَ — سجفاً من الخرافات ، وقشور الصوفية . . وكثر عديد الأدعياء الجهلاء الذين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم فى الحج إلى قبور الأولياء ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور ؛ وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يشرب الخمر ويُتعاطى الأفيون فى كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استيحاء ؛ ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام .

وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين ، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض فى ذلك العصر ، ورأى ما كان يُدعى الإسلام ، لغضب وأطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين كما يُلعن المرتدّون وعبدة الأوثان[1] » .

ب — حالة أهل مصر

قال الأستاذ الإمام[2] محمد عبده يصف حالة أهل مصر السياسية :

أهالى مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ سنة ١٨٧٦ م :

« هذه كانت شدائد مهلكة ، وظلمات حالكة يضل فيها الرشيد ، ويتعثر

---

(١) علق الأمير شكيب أرسلان على هذا الوصف بقوله : لو أن فيلسوفاً نقريساً من فلاسفة الإسلام ، أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية ، أراد تشخيص حالته فى هذه القرون الأخيرة ، ما أمكنه أن يصيب المحز ، وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكى ستوارد » ص ٢٥٩ ج ١ من الترجمة العربية للكتاب .

(٢) ص ٣٥ وما بعدها ج ١ تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده .

فيها العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ، ضياء لو كمل ظهوره ، وانتشر نوره ، لاهتدى به الضال وحسن به الحال .

ذلك أن أهالى مصر — فى هذا الحين — كانوا يرون شئونهم العامة بل الخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ومن ينيبه عنه فى تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله ، أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه فى إدارة بلاده ، أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صالحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة، وتضربه عليهم ، وكانوا فى غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ، سواء كانت إسلامية أو أوربية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربة وتعلم فيها فى عهد محمد على (باشا) الكبير إلى ذلك التاريخ الذى ذكرناه ، وذهاب العدد الكبير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد على وإبراهيم ، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأسفار ولا فوائد تلك المعارف التى اكتسبت بها . ومع أن إسماعيل باشا قد أبدع مجلس الشورى سنة ١٢٨٣ هـ وكان من حقه أن يعلم الأهالى أن لهم شأنا فى مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجالس أنفسهم بأن له ذلك الحق الذى يقتضيه تشكيل هذه الهيئات الشورية لأن مبدع المجلس قيده فى النظام وفى العمل .

أما النظام فلأنه قد نص فيه على أن نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه ، وما يعن لها أن ترسله إليه للمداولة فيه .

وأما فى العمل فلأنه كان يرسل من قبله — عند المداولة — من يخبر الأعضاء بإرادة جنابه ! فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون بأن الإرادة المطلقة ، هى التى كانت ولا تزال تصرفهم فى آرائهم .

هل كان يمكن لأحد أن يعمل على خلاف ما يؤمر به ؟ هل كان يمكن لشخص أن يميل بفكره عن الطريق التى رسمت له ، أو الوجهة التى يتوجه إليها الحاكم ؟

لو حدثه الفكر السليم بأن هناك وجهة خيراً من تلك، فهل كان يمكنه أن ينطق بما حدثه به فكره ؟ كلا ، فإنه كان يجانب كل لفظ نفى عن الوطن ! أو إزهاق للروح ! أو تجريد من المال ! !

وبينما الناس على هذا ، لا كاتب ينبههم ، ولا خاطب يعظهم — إذ عرض أمر قلما يُلتفت إليه ، أو تحوم الأفكار حواليه ، وإن كان مما يعرض فى كل مكان ، وجرى السنة الإلَهية فى كل زمان[1] . . . »

وقال مستر بلانت فى كتابه « التاريخ السرى لاحتلال إنكلترا مصر » وهو يتكلم عن السيد جمال الدين[2] :

ولما عاد إلى القاهرة من الأستانة سنة ١٨٧١ م كانت مصر فى عصر دينى مظلم لأن فساد الحكم — ولا سيما فى عهد إسماعيل — قد لوث جميع الطبقات ، وأطفأ جذوة الشجاعة والاستقلال فى صدور العلماء ؛ وما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما حديثه أن جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدين كما حدث فى الأستانة .

٢ — الحياة العقلية والاجتماعية

١ — حالة الشرق عامة

إذا استقرى الباحث حالة الشرق الاجتماعية فى عصر السيد جمال الدين الأفغانى ، يجد أنها قد بلغت أقصى الغاية من التأخر والانحطاط ، وإذا أبعد النظر فى مطارح البحث عن الأسباب التى أدت به إلى هذه الحالة السيئة بان له أن مرد ذلك كله إنما يرجع إلى داء الجهل الوبيل الذى أطبق ظلامه على بلاده جميعاً ومن أجل ذلك كانت هذه البلاد مباءة للأوهام والخرافات المهلكة ، وقرارة للعادات والبدع الموبقة .

وبهذه العلل الفتاكة سادت بين أهله الأساليب الضارة فى حياتهم ومعايشهم

---

(١) سيأتى باقى هذا الكلام فى عمله فى مصر .

(٢) مستر بلانت ص ٧٦ — ٨٠ .

ونظمهم ، حتى أصبحوا فى ساقة الأمم تأخرًا وذلة .

وبجانب هذه الأدواء انتشر فيهم داء التفرق المهلك ، لا بين الأمم الشرقية وحدها بل بين أفرادها ، فلا تجد رابطة اجتماعية تجمعهم على الاتحاد فيما يعود بالنفع عليهم ، ولا ترى صلة إنسانية تربطهم ليتعاونوا على ما فيه مصلحتهم .

وبذلك أخذهم الفقر من كل أقطارهم ، على غنى بلادهم واتساعها وخصبها ، ولكنهم بجهلهم لا يعملون على الانتفاع بها ، وشملهم الذل والهوان ، على قوتهم وكثرة عددهم ، وتركوا بلادهم نهباً مقسماً بين الأوربيين ، ورضوا بأن يكونوا لهم خداما طائعين .

وكانوا من جهلهم وغبائهم لا يعرفون الاقتصاد فى الإنفاق حتى يحفظوا أموالهم ، ويدخروا ما يزيد على نفقاتهم ، فترى من كان منهم ذا سعة فى المال لا يعرف كيف يدير أمر حياته بالقسط ، بل يركب مطايا التبذير ويطلق عنان أهوائه ، ولا يكتفى بإنفاق إيراده ، بل يستدين بالربا الفاحش ليشبع نهم أغراضه !

ولا يلبث إلا قليلا حتى يخسر أملاكه ، وبمثل ذلك يبتلع الأجنبى أموال الشرقيين ويمتص دماءهم .

ومن تبذير الشرقيين الذين عرفوا به ، إسرافهم فى الإنفاق على ولائم أفراحهم وأمواتهم مما لا نجد له مثيلا بين سائر الأمم . ولا نطيل فى بيان وجوه هذا التبذير لأنه لا يحصى .

ومما أدى إليه جهلهم أنهم كانوا لا يعرفون للمرأة حقًا ، ولا لشخصيتها واجباً ، وكانوا يعتبرون تعليمها حراماً ، وظهورها بين الناس دعارةً .

ومن الأدواء الفتاكة التى أصابت الشرق عامة ، والمسلمين منهم خاصة بسبب جهلهم ، « داء التوكل ، أو التواكل » الذى كبل عقولهم عن التفكير ، وأيديهم عن العمل وأرجلهم عن السعى ، فانصرفوا عن تسخير نواميس الكون ، وأسباب العمران ، اتكالا على القضاء والقدر ! وقد سرى ميكروب هذا الداء إلى كل شىء

لهم فى الحياة، وتركوا أرضهم وجميع مرافقهم إلى الأجنبى ليستعمرها بعلمه وتجاربه وهم إليه ينظرون !

وقد أورثهم هذا « التواكل » أمثلة يرددونها بينهم ويتكئون على مهادها فى نومهم ، وقد أصابتهم هذه الأمثلة بالشلل الاجتماعى وأقعدتهم عن الحركة والسعى فى الأرض ! مثل قولهم « سيبها على الله » ! « لا تفكر ولها مدبر ! » « اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب » ! « مراد الخالق من الخلق ما هم عليه » « لهم — أى للأجانب — الدنيا . ولنا الآخرة » ! وغير ذلك من الأمثلة — التى جعلتهم يرمون حبال أمورهم على غارب الغيب ، ويتركون له أن يأتيهم بكل نفع ، ويدفع عنهم كل ضر !

وناهيك بتوسل المسلمين بالقبور واعتمادهم فى ذلك على حديث كذب مشهور بين جمهور العوام وهو « إذا أعيتكم الأمور — فعليكم بأصحاب القبور » .

ومن تركهم لاتخاذ الأسباب « مثلاً » أن أحدهم إذا أصابه مرض لا يلجأ إلى وسائل الطب المعروفة بل يعمد إلى الدجالين ليداووه بالتعاويذ والأدعية ، أو يذهب إلى أحد الأضرحة متوسلاً بما فيها ليشفى مرضه ! » وبذلك تذهب النفوس فريسة للأمراض والعلل . وقس على ذلك فى كل أمورهم وأحوالهم .

والكلام فى عاداتهم وخرافاتهم وأوهامهم يطول حتى ليملأ مجلدات .

ولأن هذه العادات والخرافات قد أغرقت فيهم فإنها قد أوهنت من أخلاقهم الكريمة فتجد كل فضيلة قد غابت عنهم ، وكل رذيلة قد انتشرت بينهم ، وستر الحرمات قد هتكت فيهم ، بغير خشية ولا حياء .

ولأن الأجنبى الذى تحكم فيهم واستعمر بلادهم يريد أن يدوم سلطانه عليهم ، ويستمر نفوذه فيهم ، فقد مدّ لهم فى حبل ضلالهم ، وزين لهم من خرافاتهم ، وأعانهم على أوهامهم ، وحرمهم العلم النافع الذى يشفى من دائهم ، أو يوقظهم من سباتهم .

ولم يكن الأجنبى وحده هو الذى استحوذ عليهم وفى سبيله تحقيق رغائبه سخرهم ! وإنما كان بجانبه حكامهم — وهم وا أسفا من أنفسهم — فلقد كانوا

جميعاً بجهلهم ، وبما فطروا عليه من الظلم والجور ، أشد من الأجنبي عليهم فى التحكم فيهم واستنزاف أموالهم ، وكانوا يفعلون ذلك لأنهم لا يستطيعون الحياة إلا فى ظل جهل شعوبهم ، فكان هؤلاء الحكام من أجل ذلك لا يريدون من المحكومين إلا أن يهيموا فى ديجور الخرافات والأوهام التى تغطى على بصائرهم ، وتفقد قوة التميز فيهم فلا يبصرون مظالم هؤلاء الحكام وإسرافهم ! سنة الحياة فى الحكام الظالمين ، ولن تجد لها تبديلاً ! !

فالجهل ، والأجنبى ، والحاكم المستبد ، كل أولئك قد تسلطوا على الشرق قروناً حتى بلغ إلى حالة تحسبه فيها من الأحياء بين الأمم ، وهو فى الحقيقة فى حكم الرمم .

تلك كانت حالة الشرق الاجتماعية فى عصر جمال الدين مبينة بإيجاز .

ب — الحالة فى مصر

وإذا نحن أردنا أن نقف على ما كانت عليه حالة مصر الاجتماعية خاصة فى عصر جمال الدين الأفغانى[١] فإنما نذكر أنها — إذا كانت تشارك سائر البلاد الشرقية فى العادات الضارة ، والخرافات القاصمة ولا تفترق عنها فى شىء — فإنها كانت تئن من مظالم الخديو إسماعيل وجوره ، ولكى لا يفوتنا أن نشير بشىء وجيز من هذه المظالم فإنما نأتى هنا بسطور مؤثرة كتبها عالم ضليع خبرها ، وشاهد ما عانى الناس من بلائها ، ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده رضى الله عنه ، وإنا ندع لقلمه البليغ أن يكتب لنا هذه السطور[٢] .

« كان أهالى بلادنا محملين من الأثقال النقدية ، ما لا يطيقون من ضرائب على الأرض متنوعة متكثرة ، تتجدد على الدوام ، بتجدد الأشهر والأعوام ، وغرائم تفرض على الأنفس وتوابعها فى غير نظام ، لا تنتهى إلى غاية ، ولا تقف

---

(١) لقد قضى السيد جمال الدين الأفغانى أكثر سنى جهاده فى مصر — إذ لبث فيها أكثر من ثمانى سنين .

(٢) ص ٥٦ ، ٥٧ ج ٢ من تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده — من مقال نشر بجريدة الوقائع المصرية فى ٢٥ نوفبر سنة ١٨٨٠ م .

عند حد ، حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم ، ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل ذلك كان على حسب اشتهاء الحاكم وإرادته الغير مرتبة ، فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها فى أول شهر منها ، وتارة يطالبون بأموال السنة التالية فى منتصف السنة الحاضرة ، ولا محيص لهم عن الأداء فإن من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، أو ما شاكل ذلك من المعاملات الخشنة ، ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلاً سوى الالتجاء إلى أرباب البنوكة ، الذين هم أعوان الظلم فى ذلك الوقت وأشد أنصاره ، فإذا رأوا حاجة الأهالى إليهم تدللوا أو تمنعوا لعلمهم أن « الكرباج » وراءهم فلا قدرة لهم على الصبر ، ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ولو مؤقتاً إلا بالرضا بكل ما يرسمون عليه من الفائدة ، فكان التاجر لا يؤدى نقوده سلماً ، ولو قبل الحصاد بعشرين يوماً إلا ستين فيما يساوى مئة وقت الحصاد ، فتكون الفائدة أربعين أو أزيد فى الشهر الواحد ! وصاحب البنك لا يعطى إلا بفائدة عشرة فى المئة بل أزيد فى كل شهر ! ومن الناس من كان يأخذ المئة بمئتين فى أربعة أشهر ، وجميع هؤلاء حاضرون أحياء نعلمهم وهم يشهدون ؛ فكانت تلك الأيام ويلاً ووبالاً على الحكومة والأهالى جميعاً ، وكانت سعداً وربيعاً للتجار ، وأرباب البنوكة الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد ، انتشار الذئاب بين الأغنام ، فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين ؛ بالديون الهائلة واضطرهم العجز لبيع أملاكهم ، ورهن عقاراتهم وأراضيهم ، أو الانسلاخ منها بالكلية ، وأحاط بهم الفقر وصاروا فى أسوأ حال » .